المحاضرة الأولى: عوامل قيام النهضة العربية

شهد الوطن العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحولات فكرية وثقافية عميقة، أُطلق عليها مصطلح "النهضة العربية". وقد جاءت هذه النهضة في سياق تاريخي اتسم بالاحتكاك المباشر مع الغرب، وبداية التراجع العثماني، وتصاعد الوعي بضرورة الإصلاح والتحديث. ولم تكن النهضة حدثًا مفاجئًا، بل نتاج مجموعة من العوامل والمؤثرات المتداخلة التي أسهمت في بلورة مشروع حضاري جديد.

1. المؤثرات الغربية:

1.1. الحملة الفرنسية على مصر (1798 – 1801)

يرى بعض مفكري النهضة العربية الحديثة الذين تحدثوا عن عوامل اليقظة والانبعاث الأدبي والسياسي خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، كان مرده إلى الحملة الفرنسية على مصر ما بين سني 1798 و 1801، وما فتحته هذه الحملة على العالم العربي من أبواب على الحضارة الغربية الحديثة بما اشتملت عليه من مبادئ سياسية وأنظمة ادارية وعلوم وآداب وفنون وطباعة وصحافة وغيرها. ورافق نابليون بونابرت في حملته هذه فريق من العلماء الفرنسيين في الرياضيات والهندسة والطب والجغرافيا، وجلب معه مطبعتين احداهما فرنسية والأخرى عربية، ولما استقر به المقام في مصر أنشأ الدواوين كما يزعم تعويد أعيان مصر على نظم المجالس الشورية وأساليب الحكم. (محافظة، 1987، صفحة 23)

كما أسس مجمعًا علميًا على غرار المجمع الفرنسي، من أجل البحث والدراسة في موضوعات الطبيعة والصناعة والتاريخ. وكان المجلس مؤلفا من ثمانية وأربعين عضوًا موزعين على أربعة أقسام هي: الرياضيات، العلوم الطبيعية، الآداب والفنون، والاقتصاد السياسي. وأنشأ مرصدًا ومتحفًا ومسرحًا للتمثيل وأصدر جريدتين باللغة الفرنسية وهما: "العَشْرِيّةُ المصرية" (*Le Decade Egyptien*)، وهي جريدة اقتصادية خصصّت لنشر أبحاث المجمع العلمي المصري، وتصدر كل عشرة أيام مرة، وجريدة "بريد مصر" (*Le Courrier d'Egypte*) الناطقة بلسان السلطات الفرنسية، وكانت تصدر مرة كل أربعة أيام. كما أصدر نابليون جريدة عربية سماها "التنبيه" لنشر بياناته على الناس. (محافظة، 1987، صفحة 23)

ولكن مصر والشرق العربي وان بدى للبعض أنهما وجدا في حملة نابليون شيئا جديدًا في تقدم العلوم والفنون، ووجدوا قوة وحيوية، ووجد المصريون في جنود الحملة قسوة متناهية ووحشية ما كانوا يأملونها بما ارتكبوه في نهب القرى وهتك الأعراض وسلب الأموال وسفك الدماء عند قيام أدنى حركة في حقوق أهل البلاد الشرعية. ولقد قاوم المصريون هذه الحملة بكل قواهم، وكان الفرنسيون يقمعون كل مقاومة بقسوة لا نضير لها في الطبيعة الإنسانية. لقد جلا الفرنسيون عن مصر بالقوة وفي قلوب المصريين منهم جروح لا تندمل، لقد أعلن الفرنسيون أنهم جاؤوا لنشر المعرفة بمصر، ولكنهم أقفلوا جامع الأزهر ردحا من الزمن، ولم يفتح إلا بعد جلائهم عام 1801. (شريف، 1984، صفحة 32)

يقول ساطع الحصري[1]: أنه لم يصادف بين جميع الأدلة والبراهين التي قرأها في الكتب المختلفة أي برهان معقول، يؤيد – بصورة منطقية – الرأي القائل بأن الحملة الفرنسية كانت من العوامل الفعالة في النهضة المصرية، ويظهر أن هذا الرأي استولى على الأذهان، من جراء اعتماد المؤلفين المؤرخين على ما كتبه بعض الفرنسيين في هذا المضمار. الذين كانوا مدفوعين بنزعة التبجح والمباهاة ...، دون أن يلتفتوا إلى الحقائق والوقائع التي تناقض مزاعمهم هذه مناقضة تامة. وقد تبنى بعض المؤلفين المصريين هذه الآراء والمزاعم – المنشورة في الكتب والمجلات الفرنسية – قبل درسها درسا انتقاديًا وتمحيصًا علميًا، ثم أخذوا يبحثون عن أدلة جديدة، تدعم الآراء وتؤيد هذه المزاعم، التي كانت قد تسربت إلى أذهانهم قبلاً. وبعد ذلك، اقتدى بهم عدد كبير من المؤلفين في مختلف الأقطار العربية وشاعت هذه الفكرة – بهذه الصورة – شيوعًا غريبًا. (الحصري، 1985، صفحة 71)

وإن كان "الحصري" لا يستغرب أبدًا، أن يتوهم بعض الكتاب من أبناء فرنسا، أن الحملة الفرنسية خدمت النهضة الفرنسية، كما لا يستغرب كذلك أن يتباهى هؤلاء بهذه الخدمة الموهومة، فإنه يستغرب استغرابا شديدًا، كيف يظهر بين كتاب العرب من يشارك تلك الأوهام والمزاعم. (الحصري، 1985، صفحة 73)

2.1. البعثات التبشيرية في البلاد العربية

تُعدّ البعثات التبشيرية الأجنبية من أبرز العوامل التي أسهمت، بصورة مباشرة وغير مباشرة، في تحريك عجلة النهضة العربية الحديثة خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فعلى الرغم من أن الهدف الأساسي لهذه البعثات كان نشر المسيحية وتعزيز النفوذ الثقافي الغربي في المشرق العربي، فإن آثارها تجاوزت الجانب الديني لتشمل مجالات التعليم، والطباعة، والترجمة، والصحافة، الأمر الذي أسهم في إحداث تحول فكري وثقافي عميق في المجتمعات العربية.

بدأ النشاط التبشيري يتوسع في البلاد العربية مع تزايد النفوذ الأوروبي في المنطقة، خاصة بعد ازدياد الاهتمام الغربي بالمشرق العربي في أعقاب الحملة الفرنسية على مصر، وقد نشطت البعثات الأمريكية والبريطانية والفرنسية خصوصًا في بلاد الشام ومصر، حيث أسست المدارس والمعاهد والمستشفيات، واتخذت من التعليم وسيلة رئيسية لنشر أفكارها. ومن جهة أخرى يتمثل الأثر الأبرز لهذه البعثات في إنشاء المؤسسات التعليمية الحديثة، إذ أسس المبشرون مدارس اعتمدت مناهج متطورة مقارنة بالتعليم التقليدي السائد آنذاك. ومن أبرز هذه المؤسسات الجامعة الأمريكية في بيروت التي تأسست سنة 1866، والتي

[1] (1879 - 1968) من رموز الفكر القومية العربية، ولد في صنعاء اليمن، من عائلة عربية أصولها من الحجاز، وتولى وزارة المعارف ابان حكم الملك فيصل في سوريا، ثم تولى شؤون المعرف والثقافة في العراق، عمل مستشارًا في لجنة في جامعة الدول العربية، أسس معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة عام 1953، وأصبح مديرا له، والذي سمي فيما بعد معهد البحوث والدراسات العربية، من مؤلفات: آراء وأحاديث في القومية العربية، حول القومية العربية، العروبة أولا.

أصبحت مركزًا علميًا وثقافيًا مهمًا خرّج عددًا كبيرًا من المثقفين العرب الذين قادوا حركة النهضة الفكرية. كما ساهمت جامعة القديس يوسف في نشر التعليم الحديث واللغات الأجنبية، خاصة الفرنسية.

إلى جانب التعليم، لعبت البعثات التبشيرية دورًا جوهريًا في إحياء حركة الطباعة والنشر، حيث أنشأت مطابع حديثة أسهمت في نشر الكتب والمجلات والصحف باللغة العربية. وكان لهذه المطابع أثر كبير في نشر الثقافة العلمية والأدبية، وإحياء الاهتمام باللغة العربية وآدابها. كما شجعت حركة الترجمة من اللغات الأوروبية إلى العربية، فتم نقل كثير من المؤلفات العلمية والفلسفية والأدبية، ما أتاح للمثقفين العرب الاطلاع على الفكر الغربي الحديث. كما ساهمت هذه البعثات في إحياء الدراسات اللغوية العربية، إذ اهتم عدد من المستشرقين والمبشرين بدراسة اللغة العربية ووضع المعاجم والقواميس وتطوير مناهج تدريسها. وقد كان لهذا الجهد دور في تجديد الأساليب اللغوية وإحياء العربية الفصحى لتصبح لغةً قادرة على استيعاب المفاهيم الحديثة. ومن الناحية الفكرية، أثارت البعثات التبشيرية رد فعل إصلاحي عربي وإسلامي، تمثل في ظهور حركات فكرية دعت إلى إصلاح التعليم وتجديد الفكر الديني لمواجهة التأثير الثقافي الغربي. فقد أدرك المفكرون العرب، مثل محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ضرورة تطوير المؤسسات التعليمية والدينية، والانفتاح على العلوم الحديثة دون التفريط في الهوية الثقافية والحضارية.

ومع ذلك، لا يمكن النظر إلى دور البعثات التبشيرية نظرة أحادية؛ إذ ارتبط نشاطها في كثير من الأحيان بالمشاريع الاستعمارية الغربية، وسعت بعض هذه البعثات إلى فرض نموذج ثقافي أجنبي. غير أن النخب العربية تعاملت مع هذا الواقع بوعي نسبي، فاستفادت من الأدوات المعرفية الحديثة التي وفرتها، مع العمل على توظيفها لخدمة مشروع النهضة العربية.

لقد شكلت البعثات التبشيرية عاملًا مزدوج الأثر في النهضة العربية: فمن جهة كانت أداة للنفوذ الثقافي الغربي، ومن جهة أخرى أسهمت، من حيث لا تقصد أحيانًا، في إرساء دعائم التحديث الفكري والتعليمي والثقافي، وهو ما جعلها أحد المحركات الأساسية للنهضة العربية الحديثة.

3.1. الاستشراق:

أسهم المستشرقون في إحياء التراث العربي الإسلامي من خلال تحقيق المخطوطات ونشرها، وهو ما أتاح للنخب العربية الاطلاع على كنوز تراثها بعد أن كانت حبيسة المكتبات. فقد قام مستشرقون مثل إغناطيوس جولدتسيهر وتيودور نولدكه بدراسات نقدية للنصوص الإسلامية، كما نشروا أعمالًا علمية أسهمت في تطوير مناهج البحث التاريخي واللغوي. كما استفاد مفكرو النهضة من هذه الأعمال، فظهرت محاولات لإعادة قراءة التراث بمنهج علمي حديث، كما فعل طه حسين الذي تأثر بالمناهج النقدية الغربية في دراساته للأدب الجاهلي.

لم يقتصر أثر الاستشراق على نشر النصوص، بل شمل أيضًا إدخال مناهج البحث العلمي الحديثة، مثل النقد التاريخي والتحليل الفيلولوجي. وقد ساهم ذلك في تطوير الدراسات العربية والإسلامية، وتحويلها من التلقين إلى البحث والتحقيق، كما أثّر هذا في المؤسسات التعليمية الحديثة التي تبنّت هذه المناهج.

رغم إسهاماته العلمية، فإن الاستشراق ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالمشروع الاستعماري، إذ استُخدمت المعرفة المنتجة لفهم المجتمعات الشرقية والسيطرة عليها. وقد انتقد هذا البعد مفكرون لاحقون، أبرزهم إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق، حيث بيّن أن الاستشراق لم يكن بريئًا، بل حمل تصورات نمطية عن الشرق.

2. الاصلاحات العثمانية:

مثّل الحديث عن "الإصلاحات العثمانية" مدخلًا أساسيًا لفهم أحد أهم العوامل التي أسهمت في تشكّل النهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فهذه الإصلاحات، التي عُرفت باسم التنظيمات العثمانية، لم تكن مجرد تدابير إدارية، بل مشروعًا شاملًا لإعادة بناء الدولة العثمانية على أسس حديثة، وقد كان لها أثر عميق في الولايات العربية على المستويين السياسي والفكري. إذ بدأت هذه الإصلاحات رسميًا مع صدور خط كلخانة، الذي أعلن عن مبادئ جديدة في الحكم، مثل ضمان الأمن على الأرواح والأموال، وإقرار نوع من المساواة بين الرعايا، وتنظيم الضرائب والتجنيد. ثم تعززت هذه التوجهات مع الخط الهمايوني، الذي وسّع من نطاق الحقوق المدنية، خاصة لغير المسلمين، في إطار محاولة الدولة احتواء الضغوط الأوروبية وإعادة ترتيب بيتها الداخلي.

ومن جهة أخرى؛ أول ما يلفت الانتباه في أثر هذه الإصلاحات على النهضة العربية هو إدخال مفهوم الدولة الحديثة، فقد عملت التنظيمات على تحديث الإدارة، بإنشاء وزارات ومجالس إدارية، وتنظيم الولايات وفق نظام مركزي أكثر انضباطًا. هذا التحول أتاح لنخب عربية جديدة أن تنخرط في مؤسسات الدولة، ما ساعد على تكوين وعي سياسي حديث قائم على مفاهيم مثل المواطنة والقانون.

كما أسهمت الإصلاحات في تطوير التعليم، وهو من أهم روافد النهضة. فقد أنشأت الدولة مدارس حديثة تعتمد مناهج علمية، وأدخلت اللغات الأجنبية، وأرسلت بعثات إلى أوروبا، كما ظهرت مدارس إرسالية وأهلية في بلاد الشام ومصر، مما ساعد على تكوين جيل مثقف منفتح على الفكر الأوروبي. هذا التطور التعليمي أفرز طبقة من المثقفين العرب الذين سيقودون لاحقًا حركة الإصلاح الفكري والأدبي.

كما ساهمت هذه الإصلاحات دور بارز في تحرير المجال الثقافي والإعلامي، فبفضل قدر من الانفتاح، نشطت حركة الطباعة والصحافة في المدن العربية الكبرى مثل بيروت والقاهرة. وبدأت الصحف تناقش قضايا الإصلاح، والحرية، والدستور، وهو ما ساهم في تشكيل رأي عام واعٍ. كما ساعدت هذه الأجواء على ترجمة الكتب الأوروبية ونشرها، مما عمّق التفاعل الثقافي.

أدت التنظيمات التي أحدثتها الدولة العثمانية إلى بروز النخب المحلية في الولايات العربية. فقد سمحت بعض الإصلاحات بمشاركة أوسع للأعيان في المجالس المحلية، مما منحهم خبرة سياسية وإدارية. هذه النخب ستتحول تدريجيًا إلى قوة اجتماعية تطالب بالإصلاح الذاتي، بل وبالاستقلال في بعض الأحيان، خاصة مع تزايد الشعور بالتمييز داخل الدولة العثمانية.

وأيضا لا يمكن إغفال أن الإصلاحات العثمانية ساهمت بشكل غير مباشر، في تصاعد الحس القومي العربي ، فبينما كانت تهدف إلى تعزيز وحدة الدولة، فإنها كشفت في الوقت نفسه عن التفاوتات بين مكونات

الدولة، وأثارت نقاشات حول الهوية والانتماء. ومع نهاية القرن التاسع عشر، بدأت تظهر جمعيات عربية تدعو إلى اللامركزية أو الاستقلال.

إن الإصلاحات العثمانية شكّلت بيئة تمهيدية لولادة النهضة العربية، إذ أسهمت في إدخال مفاهيم الحداثة، وتطوير التعليم، وتنشيط الحياة الثقافية، وبروز النخب الفكرية والسياسية، ورغم ما شابها من قصور، فإنها تظل عاملًا محوريًا في تفسير التحولات التي عرفها الفكر العربي في تلك المرحلة، ومقدمة ضرورية لفهم مسار النهضة العربية وتطورها.

3. اصلاحات محمد علي باشا في مصر:

يُعدّ مشروع الإصلاح الذي قاده محمد علي باشا في مصر (1805–1848) من أهم اللبنات المبكرة التي مهدت للنهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. فرغم أن إصلاحاته سبقت زمن النهضة "الكلاسيكي"، إلا أن آثارها العميقة امتدت لتشكل الإطار المؤسسي والفكري الذي قامت عليه حركات الإصلاح اللاحقة. إذ عمل محمد علي على إعادة تنظيم الدولة المصرية وفق نموذج مركزي حديث، حيث ألغى نظام الالتزام، وأخضع الأقاليم لإدارة حكومية مباشرة. كما أنشأ دواوين متخصصة (بمثابة وزارات)، ونظم جهازًا إداريًا قائمًا على الكفاءة بدل الولاءات التقليدية، وقد أسهم هذا التحول في ترسيخ مفهوم الدولة الحديثة، وهو شرط أساسي لأي نهضة.

كما أدرك محمد علي أن القوة العسكرية هي أساس الاستقلال السياسي، فأنشأ جيشًا نظاميًا حديثًا يعتمد على التجنيد الإجباري والتدريب وفق الأساليب الأوروبية. واستعان بخبراء أجانب، وأسس مدارس عسكرية متخصصة، وقد انعكس ذلك على قدرة مصر على خوض حروب توسعية، لكنه أيضًا أسهم في نقل التنظيم والانضباط الحديث إلى المجتمع.

ويُعدّ إصلاح التعليم أيضا من أبرز إنجازاته، إذ أنشأ مدارس حديثة في مجالات الطب والهندسة والإدارة، مثل مدرسة الطب في أبي زعبل. كما أرسل بعثات علمية إلى أوروبا، كان من أشهر روادها رفاعة رافع الطهطاوي، الذي لعب لاحقًا دورًا مهمًا في نقل الفكر الغربي إلى البيئة العربية. وقد أدت هذه السياسة إلى نشوء نخبة مثقفة قادرة على التفاعل مع معطيات العصر، كما انتهج محمد علي سياسة اقتصادية قائمة على الاحتكار، فسيطر على الزراعة والتجارة، ووجه الإنتاج نحو التصدير، خاصة القطن. كما أنشأ صناعات حديثة (النسيج، الأسلحة، السفن)، وسعى إلى تحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي. ورغم أن هذه التجربة واجهت صعوبات لاحقًا، فإنها مثلت محاولة رائدة لتأسيس اقتصاد وطني حديث.

كما أسهم إنشاء مطبعة بولاق في إحداث نقلة نوعية في نشر المعرفة، حيث تم طباعة الكتب العلمية والتراثية وترجمتها. وقد ساعد ذلك في نشر الثقافة الحديثة، وربط المجتمع المصري بالحركة الفكرية العالمية، وهو ما كان له أثر بالغ في تشكيل الوعي النهضوي.

ومن جهة أخرى؛ اعتمد محمد علي على استقدام الخبراء الأوروبيين في مختلف المجالات، من التعليم إلى الصناعة والعسكرية. كما شجع الترجمة والاحتكاك الثقافي، مما أدى إلى نقل مفاهيم جديدة كالعلم التجريبي والتنظيم الإداري الحديث.

رغم الطابع الاستبدادي لحكم محمد علي، فإن إصلاحاته أسست لبنية تحتية حديثة في مصر، تمثلت في الإدارة والتعليم والجيش والاقتصاد. وقد أتاحت هذه البنية لاحقًا ظهور حركات إصلاحية وفكرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مثل مدرسة الإصلاح الديني مع محمد عبده، والتي استفادت من الإرث المؤسسي الذي تركه محمد علي.

4. احياء التراث العربي:

شكّل إحياء التراث العربي أحد الركائز الأساسية التي قامت عليها النهضة العربية الحديثة، إذ لم يكن المشروع النهضوي مجرد استيراد للنموذج الغربي، بل ارتكز أيضًا على إعادة اكتشاف الذات الحضارية من خلال العودة إلى التراث العربي الإسلامي. وقد أسهم هذا التوجه في بناء وعي ثقافي جديد يربط بين الأصالة والمعاصرة، ويؤسس لنهضة متجذّرة في التاريخ.

ونعني بإحياء التراث هو إعادة اكتشاف النصوص الفكرية والعلمية والأدبية القديمة، وتحقيقها ونشرها، مع إعادة قراءتها في ضوء قضايا العصر. وقد جاء هذا الاتجاه كرد فعل على الشعور بالتخلف الحضاري أمام الغرب، فكان التراث مصدر اعتزاز ومرجعية فكرية تعيد الثقة للذات العربية، كما ارتبط هذا الإحياء بمحاولة إثبات أن الحضارة العربية الإسلامية كانت في يوم من الأيام رائدة في مجالات العلم والفكر. ولانتشار الطباعة دور حاسم في إحياء التراث، حيث ساهمت المطابع في نشر أمهات الكتب العربية بعد تحقيقها، وقد برزت مؤسسات علمية مثل دار الكتب المصرية في جمع المخطوطات وحفظها ونشرها. كما ظهرت جهود علمية رائدة في تحقيق النصوص، مما أتاح للباحثين الاطلاع على التراث بشكل أوسع وأكثر دقة.

كما اضطلع عدد من المفكرين بدور بارز في إحياء التراث، من خلال تحقيق الكتب أو الدعوة إلى إعادة قراءته. ومن أبرزهم أحمد فارس الشدياق الذي اهتم بإحياء اللغة العربية ونشر الأدب القديم، وجرجي زيدان الذي أسهم في التعريف بالتاريخ العربي عبر مؤلفاته، وطه حسين الذي دعا إلى قراءة نقدية للتراث وعدم الاكتفاء بتقديسه، وقد مثّلت هذه الجهود اتجاهين متكاملين: اتجاه محافظ يعتز بالتراث، واتجاه نقدي يسعى إلى تجديده.

ومن جهة أخرى؛ أدى إحياء التراث إلى تنشيط الحركة الفكرية، حيث أصبح التراث مصدر إلهام للنقاشات حول الهوية، والحرية، والتقدم، كما ساعد على تطوير اللغة العربية وتحديث أساليبها، مما انعكس على الأدب والصحافة، وقد أسهم هذا الإحياء أيضًا في تعزيز الشعور بالانتماء الحضاري، وربط الأجيال الحديثة بماضيها الثقافي.

5. انتشار الصحافة:

يُعدّ انتشار الصحافة العربية من أبرز العوامل التي أسهمت في بلورة مشروع النهضة العربية خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إذ شكّلت الصحافة أداة فعّالة لنقل الأفكار الحديثة، وبناء الوعي الجماعي، وربط النخب المثقفة بالجمهور. إذ ارتبط ظهورها بتطور تقنيات الطباعة وانتشارها في المراكز الحضرية الكبرى كالقاهرة وبيروت، حيث ظهرت صحف رائدة مثل الأهرام، التي أسسها الأخوان سليم وبشارة تقلا، وقد لعبت دورًا محوريًا في نشر الفكر الإصلاحي. كما برزت صحف أخرى مثل المقطم والهلال،

التي ساهمت في نشر المقالات الأدبية والعلمية، وترجمة المعارف الغربية. فأدت دورًا مزدوجًا: ثقافيًا وسياسيًا. فمن الناحية الثقافية، أتاحت الصحف والمجلات فضاءً لتداول قضايا النهضة مثل التعليم، واللغة، والإصلاح الديني، وحقوق المرأة، فكتب فيها مفكرون كبار مثل محمد عبده وقاسم أمين، حيث استخدموا الصحافة وسيلة لنشر آرائهم الإصلاحية والتنويرية. كما ساهمت في تبسيط العلوم والمعارف الحديثة لعامة القراء، مما ساعد على رفع مستوى الوعي الثقافي. أما من الناحية السياسية، فقد كانت الصحافة منبرًا للنقد ومقاومة الاستبداد، حيث ناقشت قضايا الحكم والدستور والحرية. وبرزت في هذا السياق كتابات عبد الرحمن الكواكبي، الذي انتقد الاستبداد ودعا إلى الإصلاح السياسي. كما ساهمت الصحافة في نشر الفكر القومي وتعزيز الشعور بالانتماء العربي، خاصة في ظل ضعف الدولة العثمانية وتصاعد الحركات الوطنية.

6. افتتاح المدارس وانتشار التعليم:

شهد القرن التاسع عشر تحوّلًا عميقًا في بنية المجتمعات العربية، وكان افتتاح المدارس وانتشار التعليم من أبرز العوامل التي أسهمت في انطلاق ما يُعرف بـ«النهضة العربية». فقد شكّل التعليم الحديث أداة مركزية لإعادة بناء الفكر، وتحديث المجتمع، وفتح آفاق جديدة أمام النخب والجماهير على حدّ سواء.حيث مثّل إنشاء المدارس الحديثة قطيعة جزئية مع أنماط التعليم التقليدي التي كانت سائدة في الكتاتيب والزوايا. فمع إصلاحات محمد علي باشا في مصر، أُنشئت مدارس متخصصة في الطب والهندسة والإدارة، مثل مدرسة الطب في أبي زعبل، ومدرسة المهندسخانة. وقد اعتمدت هذه المؤسسات مناهج علمية حديثة مستمدة من أوروبا، مما أتاح تكوين نخبة متعلمة قادرة على استيعاب العلوم العصرية ونقلها إلى المجتمع العربي.

بالإضافة إلى ذلك ارتبط انتشار التعليم بحركة الترجمة التي نشطت بفضل مؤسسات مثل مدرسة الألسن بقيادة رفاعة رافع الطهطاوي .فقد أسهمت هذه الحركة في نقل المعارف الغربية في مجالات الفلسفة والعلوم والآداب إلى اللغة العربية، ما أدى إلى إثراء الفكر العربي وتوسيع أفقه، ولم يكن التعليم هنا مجرد تلقين، بل أصبح وسيلة لإنتاج المعرفة وتوطينها. كما ساهم في بروز طبقة مثقفة واعية بقضايا الإصلاح والتحديث. فقد ظهر مفكرون ومصلحون مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، الذين دعوا إلى إصلاح التعليم وربطه بروح العصر، مؤكدين على ضرورة التوفيق بين الأصالة والمعاصرة. وقد لعبت المدارس الحديثة دورًا في تكوين هذه النخب التي قادت مشاريع الإصلاح الفكري والسياسي.

لقد أدى انتشار التعليم إلى تنشيط الصحافة والطباعة، وهما ركيزتان أساسيتان في النهضة. فمع تزايد عدد المتعلمين، ظهرت صحف ومجلات أدبية وعلمية أسهمت في نشر الأفكار الجديدة، مثل الدعوة إلى الحرية، والدستور، وحقوق الإنسان. ومن جهة أخرى لم يقتصر أثر التعليم على الجانب الفكري، بل امتد إلى البنية الاجتماعية، حيث ساهم في تحسين أوضاع المرأة وتعزيز مشاركتها في الحياة العامة. فقد بدأت تظهر مدارس لتعليم البنات، ما أدى إلى بروز رائدات في مجالات الأدب والتعليم، وأسهم في تغيير النظرة التقليدية لدور المرأة في المجتمع. كما لعبت البعثات التعليمية إلى أوروبا دورًا مهمًا في نقل الخبرات الحديثة. فقد أُرسل

طلاب عرب إلى فرنسا وإنجلترا، وعادوا حاملين أفكارًا جديدة حول الدولة الحديثة والتنظيم الإداري والعلمي، مما ساهم في تسريع وتيرة التحديث.

المراجع المعتمدة

- أبو خلدون ساطع الحصري. (1985). آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع (المجلد 2). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- على محافظة. (1987). الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798 - 1914. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.
- محمد بديع شريف. (1984). دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة. بيروت، لبنان: دار أقرأ.